

جورج سفيريس

كما عرفته

جورج تيو توكاس

ثمة ظاهرة استرعت انتباهي ، وهي انه ما من احد من النقاد الذين اكبوا على مؤلفات جورج سفيريس عني بموضوع هام : موضوع ابيه . امامي الآن المجلد الضخم « الى سفيريس » ، المنشور تكريماً للشاعر ، وتراني انظر الى فهرس اسماء العلم الواردة في المجلد فلا اجد اسم الاستاذ ستيليانوس سفيراديس المذكوراً ولو مرة واحدة . ومع ذلك فأثر الاب ، سلبياً كان ام ايجابياً ، في تكوين الكاتب هو دائماً موضوع اساسي من عدة نواح ؛ ولكن عندما يتحدث (وهذا نادر) ان والد الشاعر قد كتب هو نفسه قصائد ، فانه يبدو لي انه من الضروري الرجوع الى هذه النصوص اذا كنا نريد ان نتعرف الى نقطة انطلاق الكاتب الذي نعترم دراسته ، كما ينبغي التعرف الى العوامل الروحية الأولى التي اثرت في طفولته وحدائته بصورة لا تزول .

قام سفيراديس الاب بدراسات حقوقية طويلة ولامعة في فرنسا ، ومارس مهنة المحاماة في ازميز وبعدها في باريس مدة من الزمن ، قبل ان يعين استاذ الحقوق الدولية العامة في جامعة اثينا . ومن جهة ثانية فقد اسهم بصورة ملحوظة في حياة عصره الادبية وفي الكفاح من اجل احلال اللغة العامية مكان الفصحى ؛ وهو كفاح كانت تقوم به المدرسة الاثينية الحديثة ، وعلى رأسها بالاماس . وقد اشترك في تحرير مجلة « نوماس » ومجلات اخرى تصدر في اثينا وازميز ، وكتب قصائد عديدة جمعها في اواخر حياته في مجلد ضخيم بعنوان « من قاع درجي » . وقد الف ايضاً مسرحيات شعرية مستوحاة من التقاليد الشعبية ، وترجم لسوفوكل في ابيات موزونة كما ترجم لبايرون ولبعض الكتاب اللاتين ولشعراء محدثين فرنسيين حتى فاليري . وثمة قصيدة من عهد الصبا بعنوان « الى لغتنا » هي تقديس حقيقي للغة الشعبية ، واخرى بعنوان « ابنة الكاهن » بقيت عالقة في ذاكرة بعض معاصريه :

اذكرها ، اذ كنت وليداً ،

وهي تصعد على مهل بعينها المطرقتين

ملائكية ، شاحبة ، شديدة الجمال

درجات الكنيسة الحجرية .



جورج تيموتوكاس ، كاتب هذا المقال ، من اشهر الادباء المعاصرين في اليونان . وهو يكتب هنا بعض ذكرياته الشخصية وتحليلاته النقدية لجورج سفيريس ، الشاعر اليوناني الكبير الذي كان آخر من حاز على جائزة نوبل للأدب . وجدير بالذكر ان كلا من جورج سفيريس وصاحب المقال هما من هيئة تحرير مجلة « ايبوك » ، شقيقة « حوار » اليونانية .

فكان اولاد القرية يتفرقون لدى مرورها
والشحاذون يقولون بصوت خافت :
ليحالفك الحظ والمغفرة .

ويلوح لي انه من المفيد حقاً كتابة دراسة مع اخذ هذه الامور كلها بعين الاعتبار ومع البحث بصورة منهجية عن العلاقات ، او بالاحرى عن الفوارق ، بين الاب والابن في حقل الشعر ، على شرط ان لا يقتصر هذا البحث على مقارنة الآثار ، كما يحدث غالباً ، لانه ليس من الممكن فصل الكتابات عن حياة اصحابها . ومهما يكن من امر ، فالذي يهمنا في الدرجة الاولى هو المناخ الادبي للبيئة التي ولد فيها الشاعر الشاب وترعرع في كنفها ووعى فيها رسالته . ولا ريب بان العناصر المكونة لهذا المناخ هي انطلاق اللغة المحكية وادب اوائل القرن العشرين من جهة ، والثقافة الفرنسية من جهة ثانية . ومن هذا

الزواج الروحي انبثق سفيريس ، والنقاد الذين يتفاوضون عن ذلك يضلون الطريق السوي بسهولة .

ولست بحاجة هنا لان اكتب دراسة ، بل اني اخذت على عاتقي ان اسرد بعض ذكريات شخصية عن الصبا كما تكتب المذكرات . ولقد تعرفت فيما مضى الى عائلة سفرياديس (ما عدا الام التي كانت قد توفيت) : فلقد كان الاب استاذي ، وكان الولدان الاصفران جان وانج رفيقيّ الدراسة وصديقيّ . اما الاخ البكر جورج فقد كان موظفاً في وزارة الخارجية ، وكان يعيش منزوياً ، يكره الصلات الاجتماعية ، ولم اكن قد رأيته بعد . وكل ما كنت اعرفه عنه انه كان يقرأ كثيراً وان اسمه قد ظهر في مجلة « نياهمسيا » التي نشر فيها ترجمة « امسية مع السيد تيت » لفاليري .

وشعرت عندما توجهت للاجتماع به لأول مرة بشيء من الوجع . فلقد كان الشاب الذي ذهبت لرؤيته يكبرني ببضع سنوات ، والفارق في السن يحسب حسابه في هذه المرحلة الاولى من الحياة . فكان قد بدأ حياته المهنية ، في حين اني لم اكن قد انسلخت تماماً عن مقاعد الجامعة . وقد ساعدتني جان وقادت المحادثة بطريقة جعلت صفاتي تبرز بوضوح . وقد اظهر جورج سفرياديس طيبة نحوي ، وفهمت اننا سنصبح صديقين بسهولة . وقد صرح لي فيما بعد ان دخولي معترك الحياة الادبية ولقاءنا الاول ذكراه ببطل من ابطال ستندال ، هو الفتى فابريس ديل دونغو في كتاب « لاشتريز دي بارم » . وفي كثير من التحارير التي وجهها اليّ والتي احفظها يدعوني « بيا عزيزي فابريس » .

وكنا في الواقع قد اصبحنا صديقين . وفي خلال بضع سنوات ، عندما كان جورج في اثينا ، كنا غالباً ما نتلقى امانحن الاثنين واما في اغلب الاحيان مع كاتز مباليس ، وكان الناس يدعوننا « بالجورجات الثلاثة » ، وكنا نطوف على الحانات الليلية وخاصة باربا ياني المشهورة في ذلك الحين . وكنا نقناش امام الطاولة الصغيرة في ساحة الدستور ، كما كنا ننسى انفسنا في زهات ليلية لا تنتهي في شوارع المدينة المقفرة . والواقع اننا كنا نشترك في اشياء كثيرة : ففي السياسة كنا من المتحررين ، وفي الآداب كنا من دعاة اللغة المحكية وتحمت تأثير الثقافة الفرنسية . كنا نحترم تراث سولوموس وبالاماس ، ومتحفظين وحذرين بالنسبة لكافافي وكارويواكيس ، وكانت صلاتنا الادبية بالقرن العشرين تنمقد من خلال فرنسا .

وكننا ، جورج سفرياديس وانا ، نجب بروست وفاليري وكلوديل واندره جيد ونحس بمتعة كبيرة لدى مطالعتنا « لانوفيل ريفي فرنسيس » . اما فيما عدا ذلك فلقد كان لكل منا ذوقه الخاص ، فمثلا كان جورج سفرياديس شديد التعلق بجميز جويس وروايته « يوليسيز » ، في حين اني لم اكن كذلك ، على ان اساس تكويننا كان واحداً وكننا على توافق طبيعي .

وكثيراً ما كنت اذهب عند آل سفرياديس ، في دارتهم القديمة قرب المتحف الاركيولوجي ، فكنت التقى ايضاً الاستاذ . لقد كان رجلاً ذا شخصية قوية ، حلو المعشر ، دائم الابتسام مع ضيوفه ، دائم الاعتناء بلحيته الصغيرة ، ودائم الأناقة ، لا ترى أي محنية في ثيابه . كان يحب النساء ، ويظهر اهتمامه الشديد بهن فيكثر من تقبيل اياديهن ويبيدي كثير التأدب ازاءهن على طريقة ما قبل الحرب الكونية الاولى . كان شديد الميل الى اللقب والتكريم والاستقبالات الرسمية ، وفي الحياة الاجتماعية كان يتصرف بلباقة الغربي المهذب ، ولكني كنت أشعر انه كان يختلف عن ذلك في علاقته مع اهله : اذ كان قاسياً ، مستبداً ، على طريقة الشرقيين القدماء ؛ فلقد كان كثير التطلب مع اولاده ، لا ادري كيف ، ولم اكن احاول ان اعرف ذلك ؛ وكثيراً ما كان يظهر غضبه لأن الامور لم تكن تجري على ما يشتهي . وكنت اشعر انه كان دوماً بين الاب وولديه جو متوتر كما يقال ، ولا اذكر ان هذا الجو زال في يوم من الايام . كان الاب يحب ان يعبر عما يحول في خاطره ، مع ميل الى التبسط ، في حين ان ولديه كانا منكشين على نفسيهما ، يخفيان شعورهما . لقد كان الاب والولدان دائمي الانقباض في علاقاتهم . اما جان فكانت تعمل على تأليف القلوب وتتوافق مع الثلاثة وتعالج القضايا العائلية بأناة وحنكة وتتوصل دائماً الى المحافظة على التوازن .

وفي يوم من الأيام اخذت وجورج نتحدث عن اصلنا المشترك ، وعن مشاكلنا المشتركة التي لا علاقة لها بالأدب . كنا نحن الاثنين لاجئين ، ولدنا وترعرعنا هو في ازمير وانا في القسطنطينية بين يونان الامبراطورية العثمانية الذين يملحون بالاستيلاء على هذه المدينة الاخيرة لبعث مجد بيزنطة القديمة . كنا نشعر بشيء من المرارة من جراء اقتلاعنا من آسية الصغرى بعد انهزام اليونانيين سنة ١٩٢٢ ، وكنا نطمح في ان نصنع لأنفسنا جذوراً جديدة ، في ان نصبح اثينيين . وشاءت الصدفة ان نكون نحن الاثنين ابني متمرعين . وقد تحدث

جورج عن والدينا على هذه الصورة :

« ان ما قام به هذان الرجلان ليس بالشيء اليسير . لقد نجحنا في تركيا ، ثم نجحنا مرة ثانية هنا بعد أن وصلنا معدمين لا يملكان بارة الفرد وعلى عاتقهما مسؤوليات عائلية جسيمة . ويجب الاعتراف بأن هذا ليس بأمر هين » .

لقد كان يتحدث عن ذلك بشيء من الافتخار وبشيء من الحنين ، كما لو انه يضم بأنا نحن الاثنين لا نستطيع عمل ما قاما به لأننا لسنا في مرتبتهما في القضايا المادية .

وفي احدي الامسيات ، وبينما كنا نتحدث من جديد وحيدين في بهوه ، نهض جورج فجأة وبدون سابق انذار وقال :

« تعال الى غرفتي ، فإني اريد ان أريك شيئاً » .

وقادني الى غرفة صغيرة يستعملها في الآن ذاته كغرفة نوم ومكتب ، وأجلسني امام طاولته ووضع امامي دفترأ ، وقال :

« اقرأ هذا وقل لي رأيك فيه » .

وجلس قبالي وأخذ ينظر إليّ دون ان ينبس ببنت شفة ، وهو يراقب انفعالاتي . كان ذلك مخطوطة « ستروفي » في حلتها النهائية . ولا استطيع القول اني قرأت بانتباه كلي في ذلك اليوم ، بل الاصح القول بأني تصفحت هذه المخطوطة واخذت عنها فكرة عامة دون النظر في معنى كل مقطع . لقد كانت انطباعاتي حسنة ، ومنذ اللحظة الاولى أحسست بلذة من جراء هذا التفتيش عن أشكال جديدة للشعر ، تجرب للمرة الاولى في لغتنا ، وهذه السخرية المحببة التي تتلأأ هنا وهناك ، وهذا الميل الى الدعابة الذي يظهر ليس فقط في الكلمات بل ايضاً ولا سيما في الاوزان والقوافي . واعجبت بهذا النقل الواعي للشعر الصافي الى لغتنا . كان هذا بمثابة تجديد جريء ولكن دون قطع خيط الماضي ، وكنت أمس شعوراً بالمسؤولية واحتراماً للغة . وقلت لجورج بأن كتابه أعجبني ، وسألته ما هي مشاريعه ؟ فأجابني بشيء من التردد : « لم أقرر بعد ما اذا كنت سأشره ام لا . سأفكر في الامر » .

وفكر مدة من الزمن ، وألححت عليه بنشره ، وكثيرون من اصدقائه المقربين ألحوا عليه بذلك . وأخيراً ظهر الكتاب . واذا كان تحت تصرفي بضعة اعمدة من جريدة « البرويا » ، فقد اعترمت ان اقدمه الى الجمهور . وظهر مقالتي بعنوان « ستروفي » في الصفحة الاولى بتاريخ ١٦ حزيران (يونيو) ١٩٣١ .

وشعر سفيريس بشيء من الغبطة ، وقال لي : « ان زملائي في الوزارة مذهولون من ان اسمي يرد هكذا في الصفحة الاولى من الصحف » .

وقد سألت ذات يوم سفيريس اذا كان يجد لذة في عمله كدبلوماسي ، واذا كان ينظر اليه بعين الجد ؛ فأجاب متردداً وهو يفكر ، بشيء من الحرج والضيق كما يحدث له دائماً كلما سئل عن اشياء حقيقية :

« انه لأمر جلل ان يهتم المرء باليونانيين المبعثرين في بلاد كانوا يزدهرون فيها فيما مضى ، وحتى في العالم كله . عندما تفكر في ذلك ، فانه من المؤكد اننا ننظر الى مهمتنا بعين الجد . كل هؤلاء اليونانيين ... »

وفي ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ، يوم دخول الجيش الالماني مدينة باريس ، كيف قيض لي ان ألقى سفيريس في ذلك المساء ؟ هل كان ذلك من قبيل الصدفة ام باتفاق مسبق ؟ لا استطيع الجواب على ذلك . المهم اننا جلسنا في موضع ما في ساحة الدستور . لقد كان الجو مشحوناً بالفرح ، وكان قد حدث قبل اجتماعنا بساعات قليلة ان شاباً انكليزياً لم يستطع ان يتحمل فكرة الهزيمة فاتحرج بقذف نفسه من احدى نوافذ فندق الملك جورج بينما كانت حركة السير على اشدها . وكان دمه قد سقى الساحة وأضفى ألواناً فاقعة على الغصاة التي كانت تعتلج في نفوسنا .

وقد كتبت في مذكراتي الحميمة :

« لقد لاحظت مراراً بأنني على وفاق اكبر مع سفيريس في اثناء المصائب ، عندما تيد الاشياء التي احببناها في الصغر ، الاشياء التي كونتنا نهائياً في اعتقادي : نظرة خاصة الى حرية الفكر ، وشعور بيونان يمتزج فيه شعور بالغرب وعلى الاخص فرنسا ، وروحية معقدة تغذيها مصادر عدة ولكنها تبقى في الاساس فرنسية يونانية . عندما كان كل ذلك في خطر ، كنا نشعر كأننا اهل ، كأننا عضوان في عائلة واحدة حلت بها مصيبة . في حين انه في غير هذه الظروف كان يسود علاقاتنا ما يفرقنا ، ونضحى غريبين الواحد عن الآخر . وكل الذين احبوا باريس مثلنا احسوا في ذلك النهار بشيء يشبه الألم الجسماني العنيف .. »

كنا مذهولين ، محطمين بلا ارادة ، فارغين تماماً . كان يلوح الينا بأنه قد سقطت مع باريس ثقافتنا وحضارتنا ، وعالمنا وزمننا ؛ بأن كل شيء قد اختفى من حولنا واننا أقمنا في الفراغ . لكأن كل هذه الكتب التي احببناها ، وهذه التيارات الفكرية ، وهذه

الوجوه الكبيرة التي عاشت ما بين الحربين ، وأسأتدتنا ، لكأن كل ذلك قد زال وذلّ وأضحى بلا جدوى بتأثير القوة الغاشمة . وكأننا نحن ايضاً قد اصبحنا بلا فائدة . وأفضيت الى سفيريس بمكنونات صدري ، وقلت له بأنني لا استطيع في هذا الجوان اتطلع يجد الى عملي الادبي ، وان كل ما حققته حتى الآن يبدو عديم المعنى تماماً ، وان بي ميلاً الى هجر القلم .

فقال لي :

« وانا الذي اعيد طبع اشعاري في هذه الايام ، احس بأني لست اكثر من مهرج . ولكن مهما يكن من امر فانه يلوح لي ان هذه الاشعار هي بمثابة الوصية » .
فقلت : « وصية ؟ ولماذا الوصية ؟ »

لم يكن يدري !

وتحدثنا ، مع فواصل من الصمت ؛ وتكلمنا على مجرى الحرب وعلى السياسة العامة وعلى الحركة الادبية التي استطعنا مع بعض الرفاق من جيل ١٩٣٠ ان نوقفها على رجليها والتي يجب ان ننظر اليها على انها انتهت . لقد احسنا في ذلك المساء بانخلال عصبنا النهائي . لقد حطمت الحدتان بقية تاريخنا الثقافي والادبي كما حدث سنة ١٩٢٢ . واتفقنا على ان يتبع كل منا في المستقبل مصيره الخاص به .
ولكن الايام المليئة بالأحداث من خريف ١٩٤٠ أعادت الينا الايمان . وعدنا الى الاعتقاد بضرورة الكفاح وبإمكانية النصر وبقوة الحرية .

وفي اوائل الحرب الإيطالية اليونانية ذهبت اجتمع بسفيريس في مكتبه في قسم الصحافة الاجنبية ، الذي نقل زيادة في الهيطة الى مبنى شركة التأمين الوطنية بشارع كوراي . واخذنا نتكلم عن الحالة ، واستطعت ان احصل على بعض الاخبار . وقد ايقظ فينا الايمان بالجهاد الذي نقوم به بعض المشاريع الكتابية .

ولو اردت ان ارسم مخططاً لجذور سفيريس الروحية لتوجب عليّ ان أميز بين ثلاث مراحل تتراكب وكأنها طبقات الارض :

ففي الطبقة الاولى ، وهي الاعمق ، يوجد البيت الأبوي ، واللغة المحكية ، والتراث الادبي لهذه اللغة الحية ، واساتذة تركيا اليونانيون ومعرفتهم المتينة باليونانية القديمة ، لغة هوميروس وهيرودوت وافلاطون ، وذكريات مدن بيزنطة القديمة .

وفي الطبقة الثانية توجد فرنسا مع جماع ثقافتها التي يتوجها راسين وشعرها الحديث من بودلير الى فاليري، والتيارات الادبية بعد الحرب العالمية الاولى كما ترى من منظار باريس. اما الطبقة الثالثة فانها مكونة من ت. س. اليوت والمحاولات الشعرية التي قام بها الشعراء الانكلوسكسونيون المحدثون من بعده .

ان عالم سفيريس الروحي كان دائماً الشعر اكثر من كل شيء آخر ، الشعر واللغة كآلة للشعر . واذا استثنينا كتاباته عن ماكريانيس ، وهو قائد يوناني قديم ، وعن تيوفيلوس ، وهو رسام ساذج ، فان محاولاته هي في الحقيقة دراسة واحدة ذات مظاهر متعددة عن الشعر . انه يعرف معرفة عميقة شعر اليونان ، قديمه وحديثه ، وشعر فرنسا وانكلترا . ولا اعتقد انه يوجد عندنا ، منذ بالاماس ، رجل وعى مشاكل اللغة الشعرية كما وعها سفيريس .

لقد كانت هزيمة آسيا الصغرى اكبر حدث نفسياني في حياته ، اذا طاحت بأماله واحلام طفولته وصباه . وهذا يفسر ما في تراثه من الشعور بالفراغ والعنة الوطنية وآلام المنفى . وهذا ايضاً ما يفسر كلمة « الغرق » التي تتردد في كتاباته . الواقع ان هناك شيئاً غرق في احد ايام آب (اوغسطس) في مرفأ ازمير ، وكان يدعى الامبراطورية اليونانية . والذي يبدو ان سفيريس لم يشعر بميل نحو الافكار الفلسفية والاخلاقية والاجتماعية . انه يعترف بذلك في قوله : « ان الافكار المجردة لم تكن مضاري في يوم من الايام . ان عملي متلخص في ان اكون متنهباً الى ما تقوله الاشياء » . ومع ذلك فاننا نلقى عنده شعوراً بوطنية جريح ، فيه الكثير من المرارة والعذاب والحنين الى كل ما هو عظمة اليونان ، وكأنه حنين من هو في المنفى .

اما في المسرح فقد احب اكثر ما يكون المسرحيات الشعرية ، ولكنه احبها نصوصاً مكتوبة . اما التمثيل فقد كان يزعجه بقدر ما كان يحون صفاء الكلمة الشعرية . وقد قرأ بعمق بعض المؤلفين الناثرين ، كستندال وفلوبير وبروست وجويد وجويس وكثيرين غيرهم . ولكني سمعته اكثر من مرة يقول (وقد صرح بذلك على الملأ بمناسبة منحه جائزة نوبل) ان فن الرواية لا يهيمه .

لقد عرضت هنا بعض الانطباعات الشخصية عن صداقة تستمر منذ مدة طويلة ، مع بعض الفواصل المديدة ؛ ومن الممكن اني قد اخطأت في بعض النقاط . ولكن الشاعر ما زال بيننا ، وهو يستطيع اذا اراد ان يكمل او ان يصحح هذه الدراسة الموجزة .